الكتب

أهل الكهف

قصة مسرحية للأستاذ توفيق الحكيم

بحث وتحليل ونقد بقلم الأديب عبد الرحمن صدقى

تتمثل حياة الشرق فى كتابين : القرآن الكريم ، وحكايات ألف ليلة وليلة . فالأول يهدى الى ما يجب ان يكون ، والثانى يصور لنا ما هو كائن واقع . يعالج أحدهما من طريق الوحى الدينى علائق الانسان بالله والمحدود باللا محدود وموقف البشر حيال المسائل الخالدة التى تفوق مدار كه ولا تى تعذبه . ويستعرض الآخر لعياننا وأخلادنا صوراً حية تترى وتترى ، مؤثة كل الايناس مؤثرة أبلغ التأثير ، لرحمة الحياة ، والوان المجتمع على اختلاف شياته وتعدد أصباغ نسيجه ، وانماط الناس ، ومطالب العيش ، ودوافع الغرائز المعقدة المتضاربة ، ومسارب الأحاسيس العميقة الغامضة

وقد عمد الاستاذ توفيق الحكيم الى هذين المرجعين من الحكمة الالهية ومن الحكمة البشرية . فاستوحى من الأول قصته المنشورة عن أهل الكهف ، واستأنف من الثانى قصته التى لم تنشر بعد عن شهرزاد . فكان اختيار المؤلف ، الحكيم ، أول عناصر نجاحه .

وسيقتصر كلامنا هنا بطبيعة الحال على القصة المنشورة ، أهل الكهف ،

عمل الفنان

لأجل ان نرد ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، نسوق ملخصا لشرح البيضاوى للسورة الكريمة . وظاهر من هذا الشرح أنه كل ما اعتمد عليه مؤلفنا فى قصته التمثيلية البعيدة الغور

هم فتية من أشراف الروم ، أرادهم دقيانوس الجبار على عبادة الأوثان والشرك بالله ؛ فأبوا وهربوا الى الكهف ، وقد مروا فى هربهم بأحد الرعاة فتبعهم وتبعه كلبه ، وكان دخولهم الكهف غدوة وألقى الله عليهم سباتا سنين عدة : اختلف الناس فى عددها ، فقالوا ثلاث مائة ؛ وزادها غيرهم تسعا ، والله أعلم بما لبثوا . وظلوا على الحال التى كانوا بها تحسبهم أيقاظا وهم رقود وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد . ثم قضى الله انبعاثهم ، فانتبهوا ظهيرة وظنوا أنهم فى يومهم أو اليوم الذى بعده ، فلما نظروا طول أظفارهم وأشعارهم التبس عليهم الأمر وأعياهم عليه . فاختاروا فيما بينهم : وبعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بطعام على أن يتخفى ولا يشعرن بهم أحداً لخوفهم أن يظهر رجال دقيانوس عليهم فيرجموهم أو يرغموهم على الشرك . فلما دخل المبعوث السوق وأخرج الدراهم وكانت مضروبة باسم دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزا : فذهبوا به إلى الملك وكان نصرانيا موحدا ، فقص عليه القصص . فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء . فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم . ثم قالت فتية الكهف للملك نستودعك الله ورجعوا إلى مضاجعهم فماتوا . فدفنهم الملك فى الكهف وبنى عليه بيعة . والاقوال مختلفة فى عددهم فمنهم من قالوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من قالوا خمسة ، ومن قالوا سبعة . ويروى أن أسماءهم يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا وهؤلاء أصحاب يمين الملك ، ومرنوش ودبرنوش ، وشاذنوش أصحاب يساره ، وكان يستشيرهم . والسابع الراعى الذى وافقهم واسم كلبه قطمير . واسم مدينتهم أفسوس وقيل طرسوس

هذه هى المادة الأولية التى أتيحت للمؤلف فانظروا كيف صارت فى يديه ، وكيف نحت فيها هذه المجموعة من التماثيل الحية وأقام منها هذا الأثر القصصى

لقد شاء له الفن أن يأخذ بقول الزاعمين أن فتية الكهف ثلاثة وآثر الاقتصار عليهم حتى لا يتوزع اهتمام القارىء أو الناظر ، فيضعف التأثير وتقل المتعة فحسب الفن اثنان من مستشارى الملك والراعى . ورأى أن تتقدم السن بأخذ هذين المستشارين ويكون

الوزير الأول ، أما الثانى فيكون فتى فى ميعة الشباب وريعانه . ثم يشاء الفن القدير ان يجعل للوزير زوجة وولداً كان يخفى أمرهما ، وأن يجعل للفتى حبيبة فى الخفاء هى ابنة الملك ووحيدته . وقد اعتنق الرجل دينه الجديد حبا فى زوجته المسيحية ، كما أن حب سليلة الاباطرة للفتى المسيحى حبب اليها دينه . فاذا قاما من سباتهما وقد تفترت من طول الرقاد أوصالهما ، كان لهما من العلائق القلبية ما يذكرانه فتنازعهما النفس إلى طلب الخروج من الكهف ، ويختلفان فترى الفتى نزقا كعادة العاشق المشوق ، أما الزوج فحذر كظيم شأن رب الأسرة المسئول . ويشاء الفن أيضا ان تكون ابنة الملك فى عصر انبعاثهم شبيهة كل الشبه بابنة دقيانوس حتى يطول وهم صاحبها وأما الراعى فلا تطول خديعته ، فما هو إلا أن افتقد غنمه فلم يجدها ، ورأى أبناء هذا الجيل على غير عهده بهم سمتا ولهجة وزيا ، حتى اتضحت له الحقيقة ، وثقلت عليه الحياة فعاد زاهدا فيها الى رقدة الكهف . ثم تبعه الوزير ثاكلا متفجعا باكيا وقد علم موت زوجته ومصرع ولده كهلا منذ دهر طويل فى حومة الوغى وميدان الشرف . واخيرا الفتى العاشق وقد تبددت أحلامه ، وبدت لناظريه هوة الزمن السحيقة تفصله عن المرأة التى يحبها .

وهكذا دخل الفن على العبرة القصصية فخرج منها — كما يرى القراء — بآية فنية

التحقيق التاريخى

لم يقصد المؤلف بروايته وجه التاريخ . ولا أظن به طمعا فى أن يكون مؤرخا . وهيهات ايضا لكاتب هذه السطور أن يدعى لنفسه هذه الدعوى العريضة . بيد أنه لما كانت القصة التى نحن بصددها لها صلة بالتاريخ ، فلا مراء فى أن الدراسة التاريخية هى على الأقل من مستلزماتها

ولقد راجعت القليل من المراجع فى التفسير ، ومن معان التاريخ الموضوعة فى العربية ، ثم انتقلت الى غير الكتب العربية مما هو موضوع فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ونشأة المسيحية بغض النظر عن مؤرخى الكنيسة من رجالها . فأذا مؤلف اهل الكهف لم يسلم من نقص فى هذه الوجهة وأخطاء قد لايكون لها خطر فى صميم الفكرة ، بيد أنه كان من المستحسن على كل حال تداركها لو تكلف قاصنا المسرحى اليسير من العناء فى التحقيق التاريخى

فقد زعم أن العاهل دقيانوس هو صاحب عصر الشهداء أى ديوقلاسيانوس Diocletianus لتقارب النطق واحتمال التحريف فى تعريب الإسماء الاعجمية عند العرب . والحقيقة أن دقيانوس هو ذوقيوس كما يلفظها البعض أو دسيوس Décius عاهل الرومان الذى حكم من عام ٢٤٩ الى عام ٢٥١ بعد الميلاد . وكان مع بسالته وحسن تدبيره شئون الملك شديدا على النصارى ، فنقض ما كانوا فيه من أمان وسكينة ، وأجمع العزيمة على سحق المسيحية . فكان شديد الكراهة للبطارقة وكان كل مؤمن فى ملكه الواسع رهنا بالسجن والتعذيب ، وقد شاع لعهده التفنن فى التعذيب بالجوع والعطش . واشتدت اضطهاداته فى سنة ٢٥٠ ميلادية فلم تعد وقائع مفردة بل أوامر عامة وتدابير منظمة . ولعل فتية القصة هربوا الى الكهف فى هذه السنة

ثم إن أكبر فتية الكهف هو مكسلينا . والأجدر بالمؤلف اتخاذه بدلا من مرنوش . كما أن أجلهم وأجلدهم تمليخا فلا محل لاطلاق اسمه على الراعى وحسب الراعى أن يدعى راعيا

كذلك لانستسيغ تسمية الوادى الذى به الكهف فى ظاهر المدينة بالرقيم . لأننا أميل الى قول المفسرين بأن الرقيم إشارة الى لوح من الحجر أو الرصاص عمد اليه رجلان مؤمنان من بيت الملك ، فكتبا فيه شأن الفتية ورقما أسماءهم وأنسابهم ، وأودعاه فى تابوت من نحاس مختوم بخاتم من فضة ، وجعلاه على باب الكهف

وأما المدينة التى كانت مسرحا لوقائع القصة فليست طرسوس كما استحسن المؤلف استنادا الى قول فى البيضاوى بل هى مدينة أفسوس Ephesus كما ذكر ذلك البيضاوى نفسه وعليها أجمع المؤرخون والمفسرون من المسلمين ورجال الدين من النصارى ، ولا عبرة بوهم واهم من المفسرين زعم ، أن مدينة أفسوس هى طرسوس وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس فلما جاء الاسلام سموها طرسوس ، فقد ساقه الى هذا الخلط جهله بتلك المدينة الداثرة إطلاقا ، واقتصار علمه على طرسوس التى فتحها العرب ، ولقد عمد فى حيرته الى قطع العقدة بدلا من حلها فقطع بأن المدينتين واحدة ، رشتان ماينهما فى موقعهما الجغرافى وماضيهما التاريخى

ومدينة أفسوس قديمة ، وبها للمشركين هيكل لأحدى آلهتهم

أرتميس Artemis (أو ديانا Diana) وحرم لتمثالها المقدس . وهذه الربة هي الأم العذراء للحياة والانتاج . وكان لأهل المدينة ولع بعلوم السحر والكهانة حتى بعد انتشار النصرانية فيها . وقد اشتهرت بأوليائها وشهدائها . وقد زعم القوم أن مدينتهم كانت الموطن الأخير لمريم العذراء وأنها دفنت بها ، ومع هذا فإن اعتقادهم في أرتميس الأم العذراء أيضا لم يزل قائما قويا . وقد كان من حق أفسوس على الاباطرة الرومان ان تكون أول مدينة ينزل بها ولاتهم على آسيا وأن يتقلدوا فيها مقاليد الولاية . وأفسوس معروفة بكثرة ماخلفته من نقودها المضروبة المتنوعة وما على سكتها من بديع النقوش وطوابع الحكام .

وأخيراً يحسن تعيين الملك الذي انبعثت على عهده أهل الكهف وهو امبراطور الدولة الشرقية المسيحي تاودوسيوس الصغير Theodosius 2 وحكمه من عام ٤٠٨ الى عام ٤٥٠ ميلادية . وكانت قد فشت في زمانه بين الناس بدعة القائلين ببعث الارواح دون الأجساد ، فجاءت معجزة الكهف تفنيداً لهم وآية على قدرة تعالى وكان هذا الملك في أول حكمه قاصراً ، يدير الدولة باسمه القاضي أنثيميوس Anthemius ثم تولت القوامة عليه اخته بولكيريا Pulcheria ، فدرج بعنايتها على الصلاح ودماثة الخلق والنزاهة وحسن الفكر والروية . وبولكيريا اسم تاريخي يصلح بدلا من بريسكا في رواية المؤلف بعد تبديل بسيط

ونقف عند هذا الحد لنقول أن الرواية لا تخسر بهذا التحقيق التاريخي شيئا . ولعل الأستاذ الحكيم لو اطلع على معظم التفاسير والتواريخ من عربية وغير عربية في هذا الموضوع وحوله ، لصدقنا فيما نذهب اليه من أن روايته الكبيرة تكسب عظمة من وجود هذه المواد في يدي صناع مثله ، وأنه كان بهذا التشبع بالتاريخ قمينا بأن يفرغ عليها الى جانب ذلك السنا الفلسفي والضرام العاطفي والروح الانساني لوناً محليا ظاهراً يصبغها في غير تكلف منه أو تعمل ، بطبيعة المناخ الأسيوي ، وبذلك المزيج من الحس الوثني ، والتصوف المسيحي .

(له بقية) عبد الرحمن صدقي

عنترة

(بقية المنشور على صفحة ٢٧٧)

شيبوب ! ياأخي وزميلي في الحروب ! لتعانق دون ضعف أو أسف لايجدي ولا ينفع ، وعيون جامدة لاتعرف أن تدمع

(ثم يطيع شيبوب اشارة عنترة وهو يكظم زفراته ويذهب)

سأموت الآن بغير شهود ونعم ماقلت . انني استطيع الآن ان اعبر عن آلامي ويتسنى لعيني ان تبكيا دون أن تسيل عبرات الآخرين . لقد خارت قواي ولكني ضاعفت قواكم ولن يرى احد منكم ضعفي و آلامي . (ثم يخترق شعاع من الشمس المشرقة سحب الضباب المربد وينير وجه عنترة)

والشمس لاتفترق عنا اذ تولد ثم يراها الناس وهي تموت . ايتها الشمس اذهبي الى ذوي وانضمي الى موكبهم وقولي لهم باني احيهم في الحياة وفي الممات . الوداع يا أماني الحب والمستقبل الزاهر اواه ! اني اشعر ان البرد يغير على شيأ فشيأ وقد اضطربت عيناي ، ماذا دهاني ! هل هذه وطأتك ايها الموت ! مهلا مهلا ! فاني انا الذي اهاجمك واشد عليك دون وجل . لامتط الجواد والرمح في يدي كما كنت من قبل ! ساجبرك ان تخضع لامري وسيقود ذراعي سيرك الاعمى الاحمق

(ثم يعلو جواده وهو في الرمق الاخير) والآن تفتح روحي جناحيك فطر وحلق . يخيل الي اني انام نوما هادئا وأرى سربا من الطير آتيا من المشرق ! . . . يقترب مني ويحيط بي ثم يذهب ويعود . ولكنه حياتي باجمعها التي تضمني كأكفان نسجتها الايام التي عشتها . ايام الامل والحب والحرب ، ان الماضي يعرض امامي واراي اول الكفن : اي ايام الطفولة ! ان خيوطك لمن خز وعسجد وانت وحدك اللامعة الزاهية ! انا ننسج بايدينا أكفاننا ، وهذا كفني يطويه الموت باصابعه ! وهو يدفني في طيات حياتي ! . . . لا تتحرك ياعنترة . . . يجب ان يراك العدو حيا يقبل مستعدا للكفاح . . .

(ثم يسلم النفس الاخير ويميل رأسه ويبقى جسمه منتصبا معتدلا مستند اذات اليمين الى مؤخرة ذات اليسار الى الصخور القائمة وفي هذه الآونة يأتي الرجال شاهرين رماحهم وسيوفهم وعلى رأسهم عمارة بن زياد فيلمح على حين غفلة عنترة وقد اضاء وجهه شعاع الشمس المشرقة فلمع سلاحه وهو راكب جواده)

عماره — آه ! إنه لحي لم يمت !

الباقون (وهم يولون الادبار مذعورين) حي !

ينزل الستار محمد كامل حجاج